القسم الأول

التسامح عند البرابرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

المهيمن الأول

الإمبراطورية الفارسية العظمى

من سايروس إلى الإسكندر

عندما فتح سايروس بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، كان العالم حينها قديماً. والأهم من ذلك، كان العالم حينها يعرف عصوره القديمة. فقد جمع مفكرو ذلك العالم القوائم الطويلة للسلالات، وبرزت إضافة بسيطة تثبت أن الملوك الذين كانت آثارهم ما تزال مرئية، حكموا قبل أربعة آلاف سنة.

– أولمستيد، تاريخ الإمبراطورية الفارسية، ١٩٤٨

إنه لمن دواعي سروري يا أونيسيكريتوس، أن أعود إلى الحياة مجدداً ولمدة قصيرة بعد موتي لكي أكتشف كيف يقرأ الناس هذه الأحداث حينها.

– الإسكندر الكبير، كما اقتبس كلامه لوسيان في كتاب كيف يكتب التاريخ، سنة ٤٠ ميلادية.

كلمة الجنة أو Paradise هي في الأصل كلمة فارسية. استخدمت اللغة الفارسية القديمة عبارة pairidaeza، التي حورها الإغريق إلى paradeisos، التي كانت تشير إلى الحدائق الملكية الأسطورية وجنان المتعة التي أنشأها الأخمينديون – وهم ملوك بلاد فارس الأقوياء الذين حكموا تقريباً مابين ٥٥٩ و٣٣٠ قبل الميلاد. في واقع الأمر، استخدم المترجمون الإغريق القدامى الذين ترجموا العهد القديم هذه العبارة في الإشارة إلى جنة عدن، وإلى زمن ما بعد الحياة، كما لو أنهم كانوا بذلك يشيرون إلى أن جنان الأخمينديين هي أقرب نسخة مرئية عن جنة السماء على الأرض[١].

كانت شهرة الجنان الأخمينية تطبق آفاق العالم القديم. وكانت ثروتها كما

يقال، تحتوي على كل أنواع الأشجار التي تحمل كافة أنواع الثمار المعروفة للإنسان، وعلى كل الورود والأزهار بشذاها الأخاذ التي كانت تنمو ما بين ليبيا والهند، وعلى الحيوانات التي جمعت من أقصى أقاصي هذه الإمبراطورية الشاسعة التي تغطي مساحة تتجاوز مليونين من الأميال المربعة. كانت هناك الجِمال البارثينية، والحملان الآشورية، والخيول الأرمينية، والبغال الكابادوكية، والزرافات النوبية، والأفيال الهندية، والوعول الليدية، والجواميس البابلية، وأشد أنواع الأسود فتكاً، بالإضافة إلى حيوانات متوحشة من كافة أنحاء المملكة. لم تكن تلك مجرد حدائق بالإطار الشكلي؛ كانت تلك الجِنان أيضاً مراكز للتجارب التي كان يقوم بها علماء البستنة، وكانت أيضاً حدائق للحيوانات، ومناطق للصيد. وكانت أعداد الحيوانات التي شكلت أهدافاً للصيد الملوكي في كل واحدة من تلك الجنان تزيد على أربعة آلاف رأس [٢].

بهذا المعنى، كانت الجنان الأخمينية بمثابة استعارة حية تمثل الإمبراطورية الأخمينية ككل. كانت الإمبراطورية الفارسية الأخمينية التي أسسها سايروس الكبير حوالي سنة ٥٥٩ قبل الميلاد، وامتدت على مدى قرنين من الزمن تقريباً، حتى بمعايير أيامنا هذه، واحدة من أكثر الإمبراطوريات تنوعاً من الناحية الثقافية، وأكثرها انفتاحاً من الناحية الدينية على امتداد التاريخ. فقد كان الملوك الأخمينديون يقومون باستقطاب أهم الموهوبين من فنانين وحرفيين وعمال ومحاربين من كافة أنحاء الإمبراطورية. بحلول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، كانت **البيرسوبوليس** Persepolis موطناً للأطباء الإغريق، والخطاطين والناسخين الإيلاميين، والنجارين الليديين، وقاطعي الحجارة الأيونيين، والحدادين السردينيين. كما أن الجيش الأخميندي استمد قوته من القادة الميديين، والبحارة الفينيقيين، وسائقي العربات القتالية الليبيين، والخيالة السيسيين، ومئات الآلاف من جنود المشاة الذين جندهم من إثيوبيا، وباكتريا، وسوغديانا، وأماكن أخرى مختلفة من الإمبراطورية[٣].

بالنسبة إلى معظم الغربيين، فإن المقصود بعبارة "العصور القديمة" يشير إلى

بلاد الإغريق القديمة وإلى روما فقط. إلا أن الإمبراطورية الأخمينديّة كانت القوة المطلقة الأولى في تاريخ العالم، وكانت تحكم مناطق أكبر من كل الإمبراطوريات القديمة مجتمعة، بما في ذلك روما نفسها. لقد قزّمت فارس الأخمينديّة - وهي في الحقيقة فتحت وضمت إليها - الممالك الكبرى مثل مملكة آشور، ومملكة بابل، ومصر، وكانت تحكم في أوج اتساعها وقوتها ٤٢ مليوناً من البشر، الذين كانوا يشكلون آنذاك حوالي ثلث العدد الإجمالي من سكان العالم[٤]. كيف أمكن لعدد قليل نسبياً من الفرس أن يحكموا مناطق شاسعة وأعداد هائلة من البشر كهذه؟ سوف يحاول هذا الفصل التركيز على أن التسامح كان عاملاً حاسماً في ذلك: أولاً، من خلال السماح للفرس في بناء إمبراطوريتهم التي سادت العالم آنذاك، ثم من خلال مساعدته لهم كي يحافظوا عليها.

أين تقع باكتريا،
وهل علينا أن نصدق هيرودوتس؟

في الألفية الخامسة قبل الميلاد، كان السهل المرتفع العظيم الذي يشكل اليوم إيران الحديثة مأهولاً. وكان سكانه الأوائل يمارسون طقوساً عائلية غريبة:

> كان شائعاً بين الدرباسيين، أن يتم قتل كل رجل تجاوز السبعين، وتناوله كطعام من قبل أقربائه، وكانت عجائز النساء يقتلن بواسطة الخنق، ويتم دفنهن... أما القزوينيون الذي أطلق اسمهم على البحر الذي كان يطلق عليه قبل ذلك البحر الهركياني، فقد كان يتم تجويع من تجاوز السبعين حتى يقضوا نحبهم. وكانت جثثهم ترمى في أحد الأماكن المقفرة ويتم مراقبتها من مسافة معقولة. إذا حدث وانتشلت من التابوت بواسطة النسور، فإن هذا كان يعتبر فألاً ممتازاً بالنسبة للموتى، ولكن لو حدث وأن أخذت هذه الجثث الحيوانات المتوحشة أو الكلاب ، فإن الموتى كانوا سيعتبرون أقل حظاً؛ إلا أن أسوأ فأل على الموتى كان يكمن في أن جثثهم تبقى في العراء لا يمسها أحد. ...و إلى الشرق من تلك المنطقة، كانت تحدث أشياء مثيرة للاشمئزاز بنفس الدرجة وبقيت تمارس إلى أن وقع الغزو بقيادة الإسكندر الكبير. فقد كان المرضى والمسنون يرمى بهم إلى الكلاب وهم أحياء [٥].

مع بدء الألفية الثانية قبل الميلاد، خضعت هذه الأقوام الصديقة للفتح الآري. وبالرغم من أن النازيين حرفوا هذه العبارة لاحقاً، فإن عبارة «الآري» هي بالأساس توصيف لغوي يشير إلى مجموعة من الشعوب التي كانت تتكلم لغات أو لهجات هندو- أوروبية شرقية، والتي هاجرت من جنوبي روسيا وآسيا الوسطى إلى الهند وبلاد الرافدين، والسهل الإيراني واستوطنت فيها. ليس من الواضح كيف استطاع الآريون التغلب على المجتمعات التي كانت تستوطن تلك المناطق قبل هذه الهجرة؛ لكنهم وبعد عدة مئات من السنين، استطاع الآريون تأسيس ممالك في تلك المناطق وإطلاق أسمائهم عليها: على سبيل المثال، الميديون في ميديا، والباكتريون في باكتريا، والفرس في فيرسيس أو فارس [٦].

كان الفرس أنفسهم يتكونون من عدد من المجموعات القبلية والعشائر، وكانت القبيلة الأخيمندية واحدة من تلك القبائل. وبمرور الزمن، استطاع الأخيمنديون توسيع رقعة الحكم الفارسي ليشمل ممالك آرية أخرى. إن اسم إيران، في الواقع، مشتق من الكلمة الفارسية "إيران شهر" وتعني «إمبراطورية الآريين». إلا أن الإمبراطورية الأخيمندية كانت أكبر من إيران الحالية بكثير. وكانت مقاطعاتها أو ولاياتها الفارسية، بأسمائها القديمة تتناسب مع أسماء بعض المناطق الشهيرة في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى. فبابل التي فتحها الأخيمنديون -على سبيل المثال- سنة ٥٣٩ قبل الميلاد كانت فيما يسمى اليوم بالعراق، وكانت على بعد ستين ميلاً تقريباً من بغداد. وكانت مملكة سوغديانا فيما يعرف اليوم بأوزبكستان. أما باكتريا، التي كانت تعني الكثير بالنسبة للإمبراطورية الأخيمندية، فهي ما يعرف اليوم بأفغانستان [٧].

ملاحظة تتعلق بالمصادر: لم يخلف الحكام الأخيمنديون فعلياً أي سجلات تاريخية مكتوبة عن إمبراطوريتهم. وقد روى الفرس القدامى حكايات انتصارات وأفعال ملوكهم بشكل رئيس من خلال إرثهم الشفهي. الوثائق القليلة التي بحوزتنا عن الملوك الأخيمنديين تتضمن بشكل رئيس نقوشاً ملكية -على سبيل المثال-

المنحوتات الأسطوانية للملك سايروس، أو المنحوتات الثلاثية الأبعاد للملك داريوس على تلال بيهستان. هذه النقوش -لسوء الحظ- لا تشكل توثيقاً سردياً للأحداث الحقيقية. وهي ليست سوى تمجيد تجريدي للسلطة الملكية وفضائلها، بالإضافة إلى الروح الدعائية التي تبثها. فالمجسم الأسطواني للملك سايروس يعلن «إنني أنا سايروس، ملك العالم، والملك العظيم، والملك القادر، ملك بابل، وملك سومر وأكاد، وملك كل أصقاع الدنيا» [٨].

نتيجة لذلك، فإن معظم ما نعرفه عن الإمبراطورية الأخمينية مصدره عدد محدود من المصادر الإغريقية بما في ذلك كتاب زينوفون **الحملة العسكرية** Anabasis ، ومسرحية **الفرس** Persians لأسخيلوس، والأهم من هذين المصدرين، وأعني به كتاب **تواريخ** Histories لهيرودوتس. عاش معظم هؤلاء المؤلفين الكلاسيكيين خلال النصف الثاني من العصر الأخميندي، وبنوا أطروحاتهم جزئياً على الشهادات الشفهية، والأساطير الفارسية التي انتقلت إليهم على مر السنين؛ وهنا أيضاً، من الصعب التمييز بين الحقيقة التاريخية وبين الدعاية السياسية.

بالإضافة إلى ذلك، وبالاعتماد على تدوين ذلك العصر، يجدر بنا أن نتذكر أن الإغريق كانوا أعداء للفرس، ورعايا تحت حكمهم، وأخيراً فاتحيهم. وهكذا، فإننا لا نستطيع بالضرورة اعتبار الكتاب الإغريق أكثر من كشف عن التاريخ الفارسي حيادية - تصوروا صدام حسين مؤلفاً لكتاب افتراضي بعنوان **تاريخ الولايات المتحدة بين سنتيْ ١٩٩٠ و ٢٠٠٦.** نتيجة لذلك، كان الوصف الذي أطلقه الإغريق على الفرس على أنهم «برابرة آسيا»، أو تصوير الإغريق للملوك الأخمينديين على أنهم منحطون وفاسقون لا يساوي حبة ملح. يستثنى من ذلك المؤرخ هيرودوتس الذي كتب عن الفرس مستخدماً كماً قليلاً من العدوانية بالمقارنة مع ما كتبه معاصروه لدرجة أن كاتباً إغريقياً مثل بلوتارك وصفه بأنه «صديق للبرابرة» (philobarbaros).

عموماً، هناك ما يكفي من المصادر ذات القواسم المشتركة، والمنظورات المختلفة، التي تشكل دعماً للدليل الأثري، بحيث يجعلنا نطمئن إلى مصداقية أغلب

الحقائق السياسية المتعلقة بالإمبراطورية الأخمينية. وسأقوم بالإشارة إلى أي شكوك أو تناقضات أو تفسيرات مخالفة بين المؤرخين حيثما ترد.

التسامح وصعود
الإمبراطورية الأخمينية

تبدأ حكاية الإمبراطورية الأخمينية مع سايروس الكبير. أصول سايروس محاطة بالأساطير. استناداً إلى النسخة التي يفضلها هيرودوتس، فإن سايروس كان حفيداً لأستياجيس، الحاكم الضعيف الذي كان آخر من مثل السلالة التي حكمت مملكة ميديا القوية. عندما ولد سايروس - لابنة أستياجيس وزوجها كامبيسيس، وهو فارسي من عشيرة الأخمينديين - أمر أستياجيس بقتل حفيده، وكان هو هذا الوليد الجديد، بعد أن راوده حلم مزعج يشير إلى أن سايروس سيخلعه عن عرشه عندما يشتد عوده.

فشلت الخطة، كما تفشل مثل هذه الخطط دائماً. فقد سلّم هارباغوس، وهو الذي أعطاه أستياجيس الأمر بقتل الطفل، ذلك الوليد لأحد الرعاة الذي ربّى سايروس كابن له. اكتشف أستياجيس أخيراً أن هارباغوس خدعه، وأن سايروس ما زال على قيد الحياة، إلا أن مستشاريه المجوس أعادوا تفسير حلمه من جديد، بحيث لم يعد أستياجيس يخشى سايروس بعد ذلك. تم إرسال سايروس إلى بلاد فارس، حيث انضم من جديد إلى عائلته الأخمينية. لكن الحظ لم يبتسم لهارباغوس بنفس السوية؛ إذ دعاه أستياجيس إلى وليمة في قصره، وهناك، قدم له لحم ابنه ممزوجاً مع لحم الخراف [٩].

وتقول نسخة أخرى من أسطورة سايروس: إن الراعي رماه في أحد الأماكن المقفرة، لكن كلبة برية أنقذته وربّته. وهناك أيضاً رواية أخرى تقول إن أمه كانت راعية للماعز، وإن أباه كان لصاً فارسياً. وفي جميع الأحوال، ظهر سايروس من جديد؛ وبحلول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد أصبح سايروس الملك التابع تحت ظل أستياجيس لبلاد فارس. وبعد عدة سنوات، قاد سايروس تمرداً ضد أستياجيس. وقد انضمت

إليه في هذا التمرد عدة قبائل وعشائر فارسية، وكانت أشهرها وأقواها، قبيلة الأخمينديين، بالإضافة إلى هارباغوس الذي قدمت له وليمة العشاء تلك، غير المحمودة.

استطاع سايروس إلحاق الهزيمة بأستياجيس واستولى على مملكة ميديا، وألحق بها ممالك كل من آشور، وبلاد الرافدين، وسوريا، وأرمينيا، وكابوديشيا. وبحلول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، فتح سايروس كلاً من مملكة ليديا (التي قامت في ما يعرف بتركيا الحالية)، والمملكة البابلية الكبرى الجديدة. وأصبح الآن حاكماً على أكبر إمبراطورية في تاريخ العالم [١١].

اتبع سايروس إستراتيجية «ضرب العنق» - ولكن ليس عنق القائد بل عنق القيادة. فبعد أن يفتح أي مملكة جديدة، ويستتب له الأمر فيها، كان سايروس يقوم ببساطة، بعزل الحاكم المحلي، والإبقاء على حياته، والسماح له بالاستمتاع بحياة مترفة؛ وكان يستبدله بحاكم فارسي صوري يحكم المنطقة أو الولاية. وكان الحاكم الصوري في أغلب الأحيان من الطبقة الأرستقراطية الفارسية. ولم يكن سايروس يتدخل في تفاصيل الحياة اليومية لرعاياه في تلك المناطق بعد تعيين حاكم صوري لها إلا في حالات نادرة، وكان يتغاضى عن آلهتهم وطقوسهم التعبدية، وثقافاتهم المتفاوتة. كان مؤيداً للتعددية اللغوية حيث سمح باستعمال اللغات الآرامية، والعيلامية، والبابلية، والمصرية، والإغريقية، والليدية والليسيانية في المعاملات الرسمية الإدارية في الإمبراطورية. أمر بتنظيم القوانين المحلية وتفعيلها مبقياً على هيكلية السلطات المحلية. ولم يكن من غير المألوف أن يحتفظ كبار الموظفين في المناطق المستعمرة بمناصبهم الرسمية تحت الحكم الأخميندي. تشير السجلات البابلية أيضاً إلى أن العائلات نفسها التي كانت تسيطر على الأعمال التجارية قبل الفتوحات التي قام بها سايروس، بقيت تمارس الدور نفسه بعد هذه الفتوحات أيضاً[١٢].

ربما كان أكثر ما يلفت النظر،هو التسامح الديني الذي أبداه سايروس - وتجلى ذلك في ميله اللافت إلى احترام المعابد، والديانات، والآلهة المحلية للشعوب التي

قام بإخضاعها. بمعنى من المعاني، كان من الأسهل على الحكام في العالم القديم السماح بممارسة طقوس العبادة الوثنية التي تتميز بتعدد الآلهة. كانت الديانات السائدة في الشرق الأدنى القديم توفيقية بعكس الديانتين اليهودية والمسيحية. فقد افترضت تلك الديانات وجود العديد من الآلهة، وكان كل واحد من تلك الآلهة يحرس المدينة المولج بحمايتها، وكذلك شعب تلك المدينة وكل مظاهر الحياة فيها. لكن هذه الرؤية الكونية التوفيقية لم تكن تعني بالضرورة أن على الشعوب المختلفة أن تتسامح مع المعتقدات الدينية لبعضها بعضاً. على العكس من ذلك، أراد العديد من الملوك الفاتحين في العصور القديمة إبراز تفوق آلهتهم الخاصة بهم – وفرض سلطتهم الخاصة بهم – بواسطة كبت معتقدات الشعوب المهزومة وتدميرها.

قبل سقوط الإمبراطورية الآشورية على سبيل المثال، فتح الملك الآشوري آشوربانيبعل بلاد عيلام. استباح المملكة برمتها، وسوى مدنها الرئيسة بالأرض، ونهب معابدها، وسحل رموزها الدينية المقدسة. كما أعطى الأوامر لجيشه لتدمير المقابر الملكية للملوك العيلاميين لأنهم، كما وصفهم آشوربانيبعل، «لم يكونوا يعبدون "إلهيه" آشور وعشتار». وقد فعل الملوك الآشوريون الشيء نفسه في مدن مثل القدس وطيبة، وحولوا العديد من المناطق إلى أرض يباب انتفت منها كل مظاهر الحياة البشرية والحيوانية [١٣].

كان نابونيدوس، الملك الذي كان يحكم بابل عندما سقطت بيدي سايروس، مشهوراً بتعصبه الديني. فقد قام بقمع عبادة الإله مردوخ في بابل، وفرض على الشعب بدلاً من ذلك عبادة إله القمر الذي تتبع له الديانة التي يؤمن بها شخصياً. وإذا اعتقدنا بصحة العبارات المنقوشة على المجسم الأسطواني للملك سايروس، الموجود حالياً في المتحف البريطاني، فإن نابونيدوس قام «بعمل شرير» ضد رعاياه الذين مارس عليهم التعذيب من خلال إجبارهم «على إتباع ديانة ليست مناسبة لهم.» في المقابل، أجرى سايروس مقاربة معاكسة لتلك التي فرضها نابونيدوس.

بعد دخوله إلى مدينة بابل على رأس جيشه، وقف سايروس خاشعاً أمام نصب

الإله مردوخ وذلك بغية استمالة السكان المحليين. قدم نفسه كمحرر للبابليين، اختاره لتلك المهمة وساعده في تحقيقها إلههم العظيم مردوخ. وفيما يلي خطبته التي ألقاها كما هي مدونة على المجسم الأسطواني لسايروس:

> عندما خطوت داخل بابل مزهواً بانتصاري، اتخذت لنفسي مسكناً مهيباً بغبطة وسرور في القصر الملكي. وجّهَ الإله العظيم مردوخ شعب بابل النبيل بتقديم الولاء لي، وبدوري، كنت أقوم بتقديم واجب الشكر اليومي له.
> لم أسمح لأحد أن يمارس الإرهاب في أي مكان من بلاد سومر وأكاد. ناضلت من أجل السلام في بابل كما في كل مدنه المقدسة الأخرى. أما بالنسبة لشعب بابل... فقد ألغيت كل أشكال العمل القسري...في نينوى، وأشور، وسوسا، وأكاد، وايشنونا، وزامبان، وميتورنو، ودير، وصولاً إلى منطقة غوتيوم، وعدت إلى تلك المدن المقدسة على الجانب الآخر من نهر دجلة التي تحولت حرماتها المقدسة إلى خراب منذ مدة طويلة [١٤].

وبالرغم من أن هذا العرض كان يقصد به -وإن كان جزئياً- الدعاية وتمجيد الذات، فإنه مع ذلك، كان يبين كيف كان سايروس يرغب في أن ينظر إليه رعاياه.

تشهد المصادر الكلاسيكية بشكل مستمر على التسامح والشهامة اللذين كان يبديهما سايروس. على سبيل المثال، يكتب زينوفون في سرديته الموسومة **سايروبيديا** Cyropaedia، ذات اللمسة الرومانسية:

> إذا أردنا تصديق أن ذلك الرجل [سايروس] يستحق كل هذا الإعجاب، فإن علينا تقصي من هو، وما هو أصله، والصفات التي كان يتحلى بها، ونوع التعليم الذي تلقاه، كي يكون بإمكاننا استيعاب كيف تفوق على نفسه في تلك الطريقة العظيمة من الحكم...أن تكون إمبراطورية سايروس هي الأعظم، والأكثر ازدهاراً من بين كل الممالك في آسيا - فإنها تشكل بحد ذاتها شاهداً على ذلك... وبالرغم من أنها كانت تغطي مساحة شاسعة، فقد كانت تحكمها إرادة سايروس وحده؛ وهو بدوره أظهر الاحترام لرعاياه واهتم بهم أيما اهتمام كما لو كانوا أبناءه الطبيعيين؛ وبدورهم، أظهروا الكثير من الاحترام لسايروس وكأنه كان بمثابة أب لهم [١٥].

اسمحوا لي بإبداء ملاحظة جانبية: يكتب زينوفون أيضاً بإعجاب عن مهارة

سايروس في تشذيب صورته أمام الناس. ففي أحد الاستعراضات التي جرت في بيرسيبوليس، «ظهر سايروس تحفُّ به العظمة من كل جانب، وكان من المريح جداً النظر إليه،» ويعود ذلك جزئياً إلى أنه اختار أن يرتدي الزي الوطني التقليدي الجذاب للميديين:

> كان [سايروس] يعتقد أن اللباس [الميدي] يساعد أي شخص في إخفاء أي عيب جسدي يعاني منه، وأنه يجعل الشخص الذي يرتديه أطول وأكثر جاذبية مما هو عليه في الواقع بكثير؛ ذلك أن الحذاء الدارج عندهم له شكل يساعد من يلبسه في إخفاء أي شيء في نعل الحذاء بسهولة، ومن دون أن يكتشفه أحد، وهو ما يجعله يبدو أطول مما هو عليه. شجع أيضاً على استخدام قلم الرصاص لتزيين العينيين، بحيث تبدوان أكثر جاذبية وشهوانية مما هما عليه في الواقع، وشجع على استخدام أدوات الزينة لجعل البشرة تبدو أكثر جمالاً مما زودتهم به الطبيعة كما قام بتنبيه مساعديه ألا يبصقوا أو يمسحوا أنوفهم في العلن [١٦].

الروايات المتواترة عن سايروس في الكتاب المقدس أكثر تمجيداً لشخصه مما سبق. فبعد فتح بابل، قام سايروس بتحرير اليهود من أسرهم البابلي، وسمح لهم بالعودة إلى القدس. وكمكافأة له على عمله الخيّرِ ذاك، وصفه أنبياؤهم بالمنقذ. يصف كتاب أشعيا سايروس على أنه «مختار» من قبل يهوه، وهو اسم الإله عند اليهود:

> هكذا قال يهوه لمن اختاره، لسايروس، الذي أمسك به من يده اليمنى كي يخضع الأمم التي تقف في وجهه، ويكشف عورات الملوك، ويفتح البوابات الموصدة حتى لا تغلق في وجهه من جديد: سوف أسير من أمامك؛ أمهد لك التلال والمرتفعات، وسوف أحول البوابات البرونزية إلى شذرات، وأحطم القضبان الحديدية. سوف أكشف لك عن الكنوز الخبيئة، والمؤن السرية كي تعرف أنني أنا يهوه.

استناداً إلى كتاب عيزرا، لم يحرر سايروس اليهود وحسب، بل أعاد إلى القدس «مراكب مليئة بالفضة والذهب» استولى عليها نبوخذ نصر وعاد بها إلى بابل؛ كما قام سايروس أيضاً بإعادة بناء المعبد اليهودي في القدس على نفقته الخاصة كما يبدو [١٧].

ليس هناك من شك في أن سايروس الكبير روِّجَت له صورة دعائية جيدة، بدءاً بالروايات الإغريقية، مروراً بالمجسم الأسطواني لسايروس، وانتهاء "بالعهد القديم" وتوحي تلك الصورة بأنه أول ملك أخميندي ظهر على هذا الشكل من التسامح لدرجة أن بعض المعجبين في العصر الحديث أطلقوا عليه لقب المؤسس «لحقوق الإنسان». لكن هذه الصورة فيها الكثير من التناقض والتضليل. فقد كانت الفتوحات التي قام بها سايروس أكثر دموية وقسوة مما تصفها المصادر القديمة؛ فمن غير المحتمل أن يكون الفرس قد تم الترحيب بهم بأذرع مفتوحة من ميديا إلى بابل [١٨].

الأهم من ذلك، أن أغلب المؤرخين في العصر الحديث يتفقون على أن التسامح المنسوب إلى سايروس له علاقة بالإستراتيجية واللعبة السياسية، ولم يكن مبنياً على مبدأ. من هنا، يمكن اعتبار أن التقديس الذي أبداه للآلهة المحلية – سواء كان ذلك للإله مردوخ بالنسبة للبابليين، أو يهوه بالنسبة لليهود – أضفى على سايروس صفة الشرعية. وكان احترامه للتقاليد والممارسات المحلية عاملاً مهماً في تخفيف حدة المقاومة والعصيان اللذين يمكن أن تقوم بهما الشعوب التي أخضعها بواسطة فتوحاته. أما المفهوم الحديث لحرية الأديان واعتباره شكلاً من أشكال «حقوق الإنسان» فلم يكن معروفاً لدى سايروس أو أي من خلفائه. كان التسامح بالنسبة للأخمينديين يعني بكل بساطة سياسة ناجعة [١٩].

المجنون والكرسي

ترك سايروس الإمبراطورية المترامية الأطراف التي أسسها لابنه كامبيسيس الذي حكم مايقارب ثماني سنوات (بين سنتي ٥٣٠ و٥٢٢ تقريباً). استناداً إلى المصادر الإغريقية، لم يكن كامبيسيس يتمتع بالصفات المتوازنة التي كان يتصف بها والده. وقد عبر هيرودوتس عن هذه الناحية قائلاً: «ليس لدي شك مطلقاً بأن كامبيسيس كان مخبولاً». وقد روى هيرودوتس حكاية مشوقة عن الجهود التي بذلها

كامبيسيس لفرض القانون والنظام: «أصدر القاضي سيسامينز حكماً جائراً مقابل رشوة تلقاها؛ قام على إثرها كامبيسيس بذبحه كما تذبح النعاج، وسلخ جلده، ثم قام بدباغته وحوله إلى شرائط استخدمها في تنجيد كرسي ابنه القاضي أوتانيس الذي عين في منصب والده كي يكون تذكيراً تحذيرياً بماهية ما كان يجلس عليه»[٢٠].

وإذا كان كامبيسيس مجنوناً، فقد كان لذلك الجنون فاعليته وتأثيره. فقد قام بغزو مصر بعد تبوئه العرش بمدة وجيزة؛ وبحلول سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، استطاع أن يستولي على الهيليوبوليس، حيث استمر في اتباع سياسة والده في احترام التقاليد والمعتقدات الدينية المحلية.

أعلن كامبيسيس في مصر أنه "ابن الإله رع" و "عشيق (الإلهة) واجيت". وبناء على إلحاح من مستشاره المصري أودجاهورسنيت، ذهب كامبيسيس إلى مدينة سيس، وهناك خر ساجداً أمام المذبح في معبد نيث، وهي إلهة مصرية قديمة. بدأ بممارسة الطقوس الدينية بموجب التقاليد المصرية، وقدّم نذوراً وقرابين للآلهة المحلية، وساعد في ترميم معابدها. يظهر رسم لكامبيسيس على البلاطة الشهيرة التي تم اكتشافها سنة ١٨٥١، والتي تخص الإله المصري القديم سيرابيس، وهو في الزي الملكي المصري، وحول عنقه يلتف ثعبان الكوبرا المصري المقدس، والمنتصب الرأس. وقد أباح كامبيسيس لنفسه كما وصفه المؤرخ بيير بريانت، بأن يتمصّر في مصر. فبدلاً من فرض الثقافة الفارسية على رعاياه المصريين، قدم كامبيسيس نفسه كتابع مخلص للآلهة المصرية، وكخليفة شرعي للفراعنة المصريين [٢١].

بالإضافة إلى مصر، قام كامبيسيس بإخضاع فينيقيا، والعديد من المدن اليونانية في وسط آسيا. ومع اكتمال هذه الفتوحات، فقد ابتلعت الإمبراطورية الأخمينية ليس فقط جميع الممالك الرئيسة في الشرق الأدنى وآسيا الوسطى، بل أصبحت بفضل دمج الأسطولين الفينيقي والمصري أعظم قوة بحرية في العالم، إذ كانت تسيطر على جبهة بحرية مترامية الأطراف تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسي. توفي كامبيسيس سنة ٥٢٢ قبل الميلاد، إما انتحاراً، وإما بسبب مرض الغرغرينا؛ إذ إن هذا الأمر يعتمد على المصدر ذي الصلة [٢٢].

داريوس الكبير

وصلت الإمبراطورية الأخمينية إلى أوج قوتها وازدهارها في ظل قيادة داريوس الكبير. قام داريوس بمد النفوذ الفارسي إلى الهند، وثبت أقدامه في بلاد الإغريق، كما صوّب غزواته باتجاه شرق أوروبا حيث تجاوز نهر الدانوب في محاولة فاشلة منه لإخضاع شعوب سيثيا الأوراسية (وهي شعوب تعتمر الخوذات، وتشتهر بمهارتها في امتطاء الخيول، كانت تتخذ من المنحدرات الروسية الجنوبية موطناً لها، وكانت تقوم -كجزء من طقوس الدفن عندها - بتحميص بذور الماريجوانا على حجارة محمرة من اللهب واستنشاق الدخان المنبعث منها). كان على داريوس في مستهل حكمه مواجهة موجة انتهازية من العصيان تسببت بها الطبيعة المشبوهة للطريقة التي اعتلى بها العرش. قام بقمع كل حركات العصيان تلك، بمنتهى القسوة في بعض الحالات «حيث أغرقهم في بحر من الدماء» كما قال هو حرفياً [٢٣].

كان داريوس إدارياً استثنائياً بكل المقاييس. فعندما لا يكون منهمكاً في حملات عسكرية عديدة، كان يشغل نفسه بالتأكيد على وجوب أن تتبوأ الإمبراطورية الأخمينية موقعها في التاريخ كواحدة من أعظم الإمبراطوريات التي شهدها العالم، وأكثرها حضارة ورقياً. كان يشرف بنفسه على بناء عواصم إقليمية جديدة، وتحولت بيرسيبوليس إلى واحدة من العجائب المعمارية في العالم القديم. أصدر عملة رسمية جديدة، وقام بتوسيع شبكة طرق رائعة ونظام اتصالات تربط بين أجزاء الإمبراطورية، وكانت تتضمن الخدمات البريدية والمراسلين السِّراع، والإشارات النارية [٢٤].

وضع داريوس إطاراً مؤسساتياً لنظام الضرائب والجزية لتمويل هذه المشروعات الطموحة؛ وفرض في هذا الصدد على الولايات التابعة مبالغ مالية مقطوعة يتم تحصيلها عادة على شكل وحدات وزن (طالِنات) من الذهب أو الفضة. يروي هيرودوتس أن كلاً من باكتريا والهند كانت تدفع ٣٦٠ طالناً في السنة. وكان على مصر أن تدفع ٧٠٠ طالناً من الذهب أو الفضة سنوياً بالإضافة إلى «الدخل الذي

يردها من بيع السمك الذي يتم اصطياده من بحيرة مويريس.» أما بابل فكان عليها أن تمول الخزانة الإمبراطورية بما مجموعه ١٠٠٠ طالِن سنوياً بالإضافة إلى تقديم «٥٠٠ من الصبية الخصيان». بالإضافة إلى ذلك، لم يكن على بعض الشعوب دفع ضرائب، لكنها كانت تقدم إسهاماتها على شكل «هدايا». على سبيل المثال، أرسلت مملكة كولكيس (وهي مملكة في القوقاز) «هدية» وكانت عبارة عن «مئة صبي ومئة فتاة»؛ أما الإثيوبيون فقد بعثوا «باثنين من الكورتات، يعادل الواحد منهما ما حجمه ربع غالون من الذهب الخام»ومئتي جذع من خشب الأبنوس (وخمسة من الصبية الإثيوبيين) وعشرين من أنياب الفيلة.» استناداً إلى بلوتارك، كان داريوس خبيراً متمرساً في فن خفض كمية الضرائب المفروضة على بعض الولايات. فبعد أن يقوم بتحصيل الضريبة المفروضة على إحدى الولايات، كان داريوس «يستشير» بعض القادة المحليين متسائلاً عما إذا كانت المبالغ المفروضة ثقيلة جداً على سكان تلك الولاية، يعلن بعدها بكل شهامة خفض تلك الضرائب بنسبة النصف [٢٥].

استمر داريوس طيلة مدة حكمه بالمحافظة على التقاليد الأخمينية المتمثلة في التسامح الثقافي والديني؛ وهو في واقع الأمر خطا بها خطوة إضافية إلى الأمام. فقد كان داريوس يفتخر بالشمولية الاستثنائية لإمبراطوريته؛ وأطلق على نفسه اللقب الذي تمت ترجمته كما يلي: «ملك البلدان التي تضم كل الأعراق» أو «ملك الشعوب التي تنتمي إلى كافة الأصول العرقية.» كما أظهر كل الاحترام للتعدد اللغوي في إمبراطوريته: فقد ترجمت نقوشه الملكية إلى العديد من اللغات؛ كانت الأوامر الصادرة عن حكام الولايات مكتوبة باللغات الإغريقية والبابلية واللوسيانية أو الديموطية، كما كان المترجمون ينشطون على امتداد المملكة. واللافت أن داريوس نفسه كان بشكل شبه مؤكد، لا يتكلم سوى لغة واحدة، وربما لم يكن يجيد القراءة[٢٦].

كان داريوس، كما يظهر في بعض النقوش الملكية، يشير إلى الإله أهورا مازدا على أنه «الإله الأعظم»، و«إله الآريين». ما يزال المؤرخون يناقشون هذه المقطوعات حتى الآن: ماذا كانت الديانة التي دان بها الأخمينديون؟ هل كان داريوس وسايروس يعبدان الآلهة نفسها؟ هل كان الأخمينديون زرادشتيين؟ هناك إجماع بين المؤرخين

حول نقطة واحة فقط: لم يفرض داريوس -شأنه في ذلك شأن سايروس- الآلهة الفارسية على رعاياه. على العكس من ذلك، كان داريوس وحكام الولايات التابعة له يظهرون احتراماً شديداً للمعتقدات والآلهة المحلية. كما ترك داريوس الهيكليات الاجتماعية المحلية على حالها من دون أن يتعرض لها بأي سوء. «رأت الغالبية العظمى من النخب الفكرية والاقتصادية والاجتماعية في البلدان التي كانت شعوبها من رعايا الإمبراطورية، باستثناء محتمل من مصر، في الملك الفارسي ليس نموذجاً للحاكم أو الطاغية الأجنبي، بل الضامن للاستقرار السياسي، والنظام الاجتماعي، والازدهار الاقتصادي؛ ومن ثمَّ الداعم لمواقفها» [٢٧]. اشتهر داريوس بجمعه وتنظيمه للقوانين المحلية ووضعها حيز التطبيق. على سبيل المثال، كان الملك الفارسي يدعم قرارات القضاة المصريين، وكان الضامنَ لهذه القرارات. كما نقل عنه أنه اعترف بالتوراة وأمر باعتبارها قانوناً لإسرائيل [٢٨].

حصد داريوس مكاسب جمة من ممارسته لسياسة التسامح تلك. فبدلاً من إضاعة موارد الإمبراطورية بغية تدمير الشعوب التي أخضعها لحكمه، أو محاولة «فوْرَسَتهم»، قام داريوس بتطويع مهاراتهم ومواهبهم ومواردهم المختلفة لصالحه. وبهذه الطريقة، استطاع داريوس بناء أروع العواصم الإمبراطورية التي عرفها العالم.

على سبيل المثال، عندما شيّد مسكنه الملكي الكبير في سوسة، استخدم داريوس أفضل المواد، واستدعى أفضل فناني إمبراطوريته الذين انتقاهم، من ستة عشر من الشعوب التي كانت تحت حكمه على الأقل. يقول داريوس كما هو مدون في «ميثاق التأسيس» لسوسة، بثلاث لغات ما يلي:

> أنا من بنى القصر في سوسة، تم جلب مواد بنائه من أماكن بعيدة....وبنيَ من القرميد الرملي الذي صنعه البابليون أنفسهم. كما أن عوارضه الخشبية المصنوعة من خشب الأرز تم إحضارها من جبل يدعى لبنان. لقد أحضر ذلك الخشب من هناك.... العاج الذي تم تصنيعه هنا، جاء من إثيوبيا والهند وأراكوسيا. والحرفيون الذين قولبوا الأحجار، كانوا من الأيونيين والسرديينيين. أما المنقبون عن الذهب والمصنّعين له فقد كانوا من مصر وسرديينيا. كما أن من

قاموا بشواء القرميد، فكانوا من البابليين؛ وأخيراً فإن من قاموا بتزيين الشرفات فكانوا من الميديين والمصريين.

وقد علّق المؤرخ ريتشارد فراي على هذا العرض بالقول: إن من المرجح «أن هذا أكثر طاقم من العمال له هذه الصفة العالمية حتى ذلك التاريخ» [٢٩].

كانت القدرة على استقطاب أناس من مختلف المشارب في الإمبراطورية، السمة الإستراتيجية التي مارسها ليس فقط داريوس، بل جميع الملوك الأخمينديين. فقد استقطب البلاط الإمبراطوري الأطباء المصريين، والعلماء الإغريقيين، وعلماء الفلك البابليين. واستناداً إلى المصادر الإغريقية، حاول الملوك الأخمينديون باستمرار إغراء المفكرين الإغريق بالعمل لديهم، مغدقين عليهم الوعود بمكافآت مجزية. عندما احتاج داريوس سنة ٥١٣ قبل الميلاد لبناء جسر فوق مضيق البوسفور، اختار معمارياً من جزيرة ساموس الإغريقية. وبعد ثلاثة عقود، أمر الملك الأخميندي زيركسيس ببناء جسرين آخرين فوق ما يعرف الآن بمضيق الدردنيل. وظّفَ زيركسيس لهذه الغاية مختصين من بلدان عدة وخاصة «الفينيقيين الذين قاموا بمد كابلات من ألياف الكتان الأبيض، والمصريين الذين جلبوا معهم كابلات من ورق البردي» [٣٠].

الأهم من هذا كله، أن الأخمينديين استطاعوا بسبب هذا التسامح تجميع أعظم آلة حرب في تاريخ البشرية. كان الجيش الفارسي تحت قيادة سايروس الكبير يتكون مبدئياً من عناصر من الفرس والميديين (كان الفرس والميديون مرتبطين ببعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً. وغالباً ما استخدم الإغريق والمصريون عبارتيْ «الفرس» و«الميديين» بشكل تبادلي) [٣١]. في قلب هذا الجيش كان الخالدون العشرة آلاف؛ وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأن أعدادهم لم تتراجع أبداً إلى ما دون هذا العدد، ذلك أن «البدلاء كانوا دائماً جاهزين للحلول محل أي من هؤلاء إذا ألمّ به مرض، أو تعرّض للقتل». بالاستناد إلى هيرودوتس، لم يكن هؤلاء الخالدون «يرتدون أفخر الملابس الموشاة بالذهب وحسب، بل كان يسمح لهم عند توجههم

نحو ساحات المعارك، اصطحاب جواريهم وخدمهم في عربات خاصة، في الوقت الذي كان طعام خاص يجلب إليهم على ظهور الجمال، والحيوانات الأخرى التي تنقل البضائع.» كان تسعة آلاف من أولئك الخالدين من الرمّاحة مسلحين برماح مرصعة برمّانات فضية، أما الألف الباقي فكانوا يشكلون الحرس الملكي للملك، وكانوا يمتشقون أسلحة مرصعة برمانات ذهبية [٣٢].

مع كل فتح من الفتوحات الجديدة، كان الجيش الأخميندي يضيف وحدات عسكرية جديدة، بما في ذلك فرقاً كاملة من الخيالة، والكتائب والقوى البحرية. وبعد مجيء داريوس إلى الحكم، أصبح الجيش قوة ضخمة مدهشة متعددة الجنسيات، يقودها بشكل رئيس الفرس. كانت كل ولاية تجهز فرقتها الخاصة بها، والتي بدورها كانت تقسم إلى وحدات، كل واحدة منها تتكون من عشرة من الجنود، ومجموعات يبلغ تعداد الواحدة منها مئة، وأفواج يبلغ تعداد الواحد منها ألفاً من الجنود، وهكذا. كان الجنود يرتدون الدروع والخوذات، ويمتشقون أسلحة تدل على هوياتهم الوطنية. كانت فرق المشاة الفارسية تحمل سهاماً طويلة، وسيوفاً قصيرة، وتروساً من أغصان لدنة مجدولة. وكانوا يضعون تنكاً متعدد الألوان فوق الدروع التي يلبسونها، ويعتمرون قبعات واسعة وعمائم. مقابل ذلك، كان الألورايون يلبسون «خوذات خشبية»؛ أما البافلاغونيون فكانوا يعتمرون «خوذات ذات ضفائر»، وكان البيسيديون يضعون «خوذات برونزية ذات ريش كعرف الديك، وقرنيّ وأذنيّ الثور.» كما كان هؤلاء يرتدون ألبسة غير مألوفة اجتماعياً تتمثل في «سراويل بنفسجية اللون» تضفي عليهم منظراً لافتاً جداً» [٣٣].

بُذِلت محاولات حثيثة لربط مهارة الشخص بالدور المنوط به. كانت البحرية الأخمينية على سبيل المثال –وهي مصدر القوة البحرية الأخمينية الهائلة– تتكون بشكل رئيس من الفينيقيين، وهم البحارة المهرة الذين شكلت سفنهم حجر الرحى في الأسطول الفارسي. أما الفرس الذين لم يكونوا شعباً خبيراً بالشؤون البحرية، فقد تبنوا التجارة البحرية؛ ولذلك ازدهرت أعمال التجار الفينيقيين في ظل حكم

الأخمينديين. وبدورهم، استفاد الحكام الأخمينديون الذين كانت لهم حصة وافرة من الأرباح التجارية من خلال الرسوم والضرائب الجمركية [٣٤].

استفاد الفرس أيضاً من القوة البحرية للمصريين والإغريق. ففي ظل حكم داريوس، أبحر الأميرال سكايلاكس الأيوني في رحلته الشهيرة عبر نهر الإندوز وصولاً إلى المحيط الهندي، ومنه إلى مصر. ويبدو أن داريوس أرسل سفناً استكشافية أخرى أيضاً أبحرت حول إفريقيا. بالإضافة إلى ذلك، قام الفرس بتجنيد أعداد كبيرة من القراصنة الإغريق المشهورين بقدراتهم التكتيكية. استناداً إلى المؤرخين الإغريق على الأقل، أصبح هؤلاء القراصنة في نهاية المطاف صفوة الجيش الأخميندي[٣٥].

وكما دائماً، هناك خطر يتمثل في المفارقة التاريخية الناتجة عن استخدام العبارات الحديثة في الحديث حول الإمبراطوريات القديمة. فبالرغم من أن الأخمينديين «استقطبوا» أفضل الحرفيين والمحاربين من شتى أصقاع الإمبراطورية، فإننا لا نتحدث هنا عن عملية استقطاب بالمعنى الحديث للكلمة تشبه عملية استقطاب لاعبي كرة السلة الجامعيين. فالعديد من هؤلاء الحرفيين والمحاربين تم تجنيدهم بالإكراه؛ وذلك لأن الحرية الفردية، وحرية توقيع العقد لم يكونا نتاجاً لمبادئ وثقافة بلاد فارس القديمة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه من الجدير بالملاحظة أن داريوس كان شغوفاً بإعدام أي شخص على الخازوق إذا كانت لديه الجرأة لتحديه. فعندما تم إلقاء القبض على المتمرد الساغارتي، سيكانتاكما، واستناداً إلى ما ذكره داريوس نفسه فقد «جدع أنفه وقطع أذنيه، وفقأ إحدى عينيه» وتركه «مقيداً أمام مدخل القصر» حيث «كان بإمكان الجميع رؤيته»؛ وتابع داريوس قائلاً: «بعد ذلك أمرت بوضعه على الخازوق في أربيلا». أما بالنسبة للمتمرد فرافارتيس الميدي الأصل، فقد عامله داريوس بطريقة مماثلة: «جدعت أنفه وقطعت أذنيه ولسانه وفقأت إحدى عينيه؛ وأمرت بأن يقيد في سلاسل تحت الحراسة على مدخل قصري حيث كان باستطاعة الجميع رؤيته هناك. بعد ذلك أمرت بوضعه على الخازوق في إيكباتانا».

كما أن التسامح الأخميندي لم يترافق يوماً مع مفهوم المساواة؛ بل على العكس من ذلك، فقد كانت هيكلية بلاد فارس الأخمينية هرمية، وكان الفرس يقبعون بصورة جلية، في أعلى قمة الهرم. كانت السلطة مركزة بيد الملك الكبير. وكان مركز السلطة تحت إمرته أينما ذهب، سواء كان ذلك في سوسة، أو بيرسيبوليس، أو ميمفيس (وكان ذلك يعتمد على الفصل من السنة؛ فقد كان الملوك الأخمينديون ينتقلون من عاصمة إلى أخرى ترافقهم حاشية ضخمة). ويلي الملك في هرم السلطة حكام الولايات الذين يحكمون ممالكهم الصغيرة، وجميعهم من الفرس. ويأتي بعد حكام الولايات، وهذه كانت المناصب الأعلى على امتداد الإمبراطورية. كانت تلك المناصب الرفيعة يشغلها المنتمون إلى الأرستقراطية الفارسية. كتب هيرودوتس عن الفرس ما يلي: «اعتبروا أنفسهم متفوقين على الجميع في كافة أنحاء العالم، وفي كل مناحي الحياة، وكانوا يسمحون لأمم أخرى أن تشاركهم بعض هذه المواصفات التي تتناقص قيمتها كلما بعدت المسافة عن بلاد فارس، وكانت أبعد الأمم عنهم جغرافياً هي الأسوأ بين هذه الأمم» [٣٦].

مع ذلك، استمر الملوك الأخمينديون بنجاح طيلة قرنين من الزمن في حكم إمبراطورية مترامية الأطراف بشكل لم يسبق له مثيل، وكانت سياسة التسامح التي اعتمدوها من العوامل المساعدة لهم في هذا الأمر. لقد خفف الأخمينديون بنسبة كبيرة احتمال قيام أي معارضة أو ثورة يمكن أن تقوم بها الشعوب المستعمرة بسبب احترامهم للقوانين والتقاليد المحلية، وبسبب سماحهم لتلك الشعوب في الاستمرار في استخدام لغاتها الأصلية، وديناتها وطقوسها الدينية. كما استطاع الأخمينديون تحويل التنوع الثقافي الهائل في الإمبراطورية بين الشعوب المستعمرة إلى مصدر للتعاون والقوة من خلال تبني مواهب أفضل الفنانين والمفكرين والعمال والمحاربين بغض النظر عن انتمائهم الديني أو العرقي.

كانت عالمية الثقافة الأخمينية مدهشة بكل المقاييس. فكما كانت حدائقهم الغناء تفاخر باحتوائها على أكثر أنواع النباتات والحيوانات ندرة والتي تم إحضارها

من مختلف مناطق الإمبراطورية، فقد كانت الموائد الملكية الأخمينية مليئة بما لذ وطاب من أفخر أنواع الأطعمة التي تشتهر بها الشعوب المستعمرة: النعامة العربية، و «زيت الأقنثوس الذي أحضر من كارمانيا»، والسمك من الخليج الفارسي، والقمح «من حقول القمح في آسوس وأيوليس»، والبلح «من بابل، وتحديداً من حدائق باخوس.» استناداً إلى زينيفون، فقد «كان الملك الفارسي يكلف تجار الخمور بالبحث في كافة أنحاء البلاد من أجل الحصول على نوع من الشراب الذي يستسيغه الملك.» وكان طباخو الملك يجوبون أنحاء البلاد ويسافرون إلى أماكن بعيدة بحثاً عن طرائق جديدة لإعداد أنواع مختلفة من الطعام؛ وكانت تمنح الجوائز لكل من يأتي للملك بنوع جديد من الوجبات الغذائية الشهية [٢٧].

فيما بعد، بدأ الإغريق ينظرون بازدراء إلى التبذير والإفراط في البذخ اللذين تتميز بهما الولائم الفارسية. كتب هيرودوتس أن «الفرس الأثرياء كانوا يشوون ثوراً أو حصاناً أو جملاً أو حماراً بكامله في الفرن» (أما فقراء الفرس فكانوا يكتفون بشواء الخراف أو الماعز فقط).

أكد هيرودوتس على الأصناف المتعددة من الأطعمة في الوجبات الفارسية بالمقارنة مع الأصناف المحدودة للأطعمة الإغريقية: «إن لديهم أصنافاً عديدة من الحلوى، وكل واحد من هذه الأصناف يوضع على مائدة الطعام بشكل منفصل. هذه العادة هي ما دعتهم إلى القول: إن الإغريق يتركون مائدة الطعام وهم ما زالوا جائعين، لأنه ليس لدينا من أصناف الطعام ما يستحق الذكر بعد الانتهاء من تناول الصنف الأول: في اعتقادهم أنه لو كانت لدينا أصناف أكثر، ما كنا لنتوقف عن الأكل».

كانت للولائم الملكية فخامتها الخاصة بها. فبالاستناد إلى ما ذكره هيراكليديس، «كانت الآلاف من الحيوانات تذبح يومياً للملك». (وهذا الرقم يبدو من الغرابة بحيث أن أحد المؤرخين على الأقل يعزو ذلك إلى مخصصات الجنود.) كانت

الصحون والكؤوس مصنوعة من الذهب والفضة؛ وكانت ثلاث مئة من جواري الملك اللواتي يعزفن الموسيقى في حال تأهب دائم للعزف على القيثارة، أو الغناء طيلة مدة الوليمة [٣٨].

أما القصور الأخمينية الفارهة – التي كانت تشكل مزيجاً من الفنون المعمارية المستوحاة من الشعوب المستعمرة – فكانت تعتبر رمزاً من رموز الإمبراطورية بشكل عام. لقد عبر الملوك الأخمينديون عن استمرارية تواصلهم مع الإمبراطوريات الأقدم، وأظهروا تفوقهم عليها من خلال دمج العناصر المعمارية الأجنبية من آشورية وبابلية ومصرية، بالإضافة إلى عناصر أجنبية أخرى إلى فنونهم المعمارية، ونصبهم الضخمة. كانت الطريقة المثلى بالنسبة للملوك الأخمينديين، لإظهار قوتهم تتمثل بشكل فعال ليس من خلال ممارسة الهيمنة و «فرسنة» الشعوب المستعمرة، بل بواسطة الإبقاء على التنوع الثقافي والعرقي في الإمبراطورية واستثماره إلى أقصى حد ممكن [٣٩].

سقوط أول قوة مهيمنة

كانت بلاد فارس الأخمينية أول قوة مسيطرة على العالم في التاريخ. تسيّد كل من سايروس وداريوس مفاتيح أسرار التسامح الإستراتيجي، وهو ما ساعدهما في بناء إمبراطورية كانت تضم «كل العالم المعروف آنذاك، وكذلك بعض الأراضي التي لم تكن قبلهم معروفة،» والممتدة من «رمال أفريقيا الملتهبة إلى حدود الصين الجليدية»[٤٠]. ولكن إذا كان التاريخ قد مجّدَ كلاً من سايروس وداريوس، فإنه شيّطنَ ابن داريوس، زيركسيس. تعزى عادة بداية نهاية الإمبراطورية الأخمينية في الواقع، إلى حكم زيركسيس «المستبد» (الذي امتد من سنة ٤٨٥ قبل الميلاد إلى سنة ٤٦٥ قبل الميلاد)، وتميزت مدة حكمه بعدد من الهزائم العسكرية الكبرى التي مني بها الفرس، كما تميزت بأول إشارة لبداية صعود الإغريق.

تعود معرفتنا بالملك زيركسيس بالدرجة الأولى إلى الإغريق الذين يروون لنا

كيف كان يقمع حركات العصيان في مختلف أنحاء الإمبراطورية بمنتهى الوحشية – كان يسوي المعابد وأماكن العبادة الأخرى بالأرض، ويقتل الكهنة، وحتى إنه كان في غضون ذلك، يحول بعض الرعايا إلى عبيد. وبالإضافة إلى كونه قاسياً ومتعصباً، فقد نقل عنه أنه كان منحطاً وفاسقاً. يبدو أن حريمه لم تكن تكفيه؛ وقيل إنه وقع في حب العديد من النساء بمن فيهن أخت زوجته، وزوجة ابنه، وابنة شقيقته. (لم تنجح أي من تلك العلاقات). تشير المصادر الإغريقية إلى أن زيركسيس أصر بقوة على إبراز الهوية "الفارسية" للإمبراطورية. فقد رفع من مرتبة الإله الفارسي أهورا مازدا إلى فوق مستوى جميع الآلهة الأخرى بشكل لم يقم به أي من الملوك الأخمينديين من قبل. ففي مصر وبابل، حيث سمح كل من سايروس وداريوس للسكان المحليين بممارسة قدر كبير من الحكم الذاتي، وأظهرا احتراماً كبيراً للعادات المحلية، فقد حول زيركسيس هذين البلدين إلى حالٍ من "العبودية" [٤١].

قد تكون هذه الملاحظات الإغريقية الكلاسيكية تحمل في طياتها الكثير من التحامل؛ وذلك لأن زيركسيس الذي قاد حملة عسكرية هائلة ضد بلاد الإغريق، واحتل أثينا مدة قصيرة، قام بتدمير المعابد في الأكروبوليس. ولكن بما أنه كان من الشائع قيام الحكام الأقدمين باتخاذ مثل هذه الإجراءات العقابية في حال حدوث عصيان، فإنه من الصعب معرفة ما إذا كان زيركسيس أكثر «استبداداً» من الملوك الأخمينديين الأوائل. استناداً إلى بعض المؤرخين الحدثاء، فإن ما قام به زيركسيس كان الاستمرار في ممارسة التقاليد الأخميندية في التسامح عندما كان ذلك ممكناً من الناحية الإستراتيجية، والقيام برد فعل يتميز بمنتهى القسوة عندما لم يكن الأمر كذلك – الفرق هنا يكمن في أن زيركسيس واجه تهديدات أكثر جدية وانتشاراً للحكم الفارسي [٤٢].

على أي حال، استطاع زيركسيس المحافظة على الإمبراطورية الفارسية، بالرغم من أن النصف الثاني من مدة حكم سلالة الأخمينديين تميزت بالثورات في مختلف أرجاء الإمبراطورية، خصوصاً في آسيا الوسطى، والتي كانت تتبعها عمليات قمعية

بمنتهى القسوة. فقدت الإمبراطورية الفارسية سلطتها على مصر حوالي سنة ٤٠٠ قبل الميلاد، لكنها استُرِدّت بعد ذلك بست سنوات بواسطة أراتكسيركسيس الثالث، الحاكم الأخميندي ما قبل الأخير. كان أراتكسيركسيس كفاتح أقرب إلى زيركسيس منه إلى سايروس أو داريوس. استناداً إلى رواية ديودوروس، «قام "أراتكسيركسيس" بعد تدمير حصون معظم أهم المدن "المصرية"، وبعد استباحة المعابد، بجمع كمية ضخمة من الذهب والفضة، بالإضافة إلى وضع يده على السجلات المنقوشة في تلك المعابد القديمة». في نهاية المطاف، قام أحد خصيان البلاط بدس السم لأراتكسيركسيس. في كثير من النواحي، كانت السلالة الأخمينية في لحظات احتضارها صورة عن الإمبراطوريات التي سبقتها [٤٣].

اعتلى داريوس الثالث، وهو آخر الملوك الأخمينديين، العرش سنة ٣٣٦ قبل الميلاد. في تلك الأثناء، كانت هناك قوة جديدة تشق طريقها صعوداً في بلاد الإغريق. قام الملك المقدوني فيليب بتوحيد كبريات المدن الإغريقية خلفه سنة ٣٣٨ قبل الميلاد. بعد مرور ست سنوات على وفاته، فتح ابنه الإسكندر الكبير الإمبراطورية الفارسية التي كانت الإمبراطورية التي لا تقهر.

لماذا سقطت الإمبراطورية الأخمينية؟ تؤكد المصادر الإغريقية على الوحشية والاضطهاد اللذين مارسهما الملوك الأخمينديون الذين تعاقبوا على الحكم في المراحل الأخيرة من الإمبراطورية، وهو ما أدى إلى قيام انتفاضات عنيفة من قبل الشعوب المستعمرة، إلى أن وصل بها الأمر إلى تفضيل الإسكندر عليهم. بحسب المؤرخين الكلاسيكيين، احتفل المصريون بوصول الإسكندر: «لأنه وبسبب ارتكاب الفرس أعمالاً مشينة بحق معابدهم، وحكمهم بمنتهى القسوة، فقد رحب المصريون بالمقدونيين.» أما في فينيقيا، «فقد تقبله السكان بخيارهم.» وفي إفيسيوس، وبعد أن قام بزيارة إلى مزار الإلهة أرتيميس المحلي، أصدر الإسكندر إعلاناً تم تعميمه على كل المدن الإغريقية الساحلية: «أمر بإسقاط كافة الحكومات التي تحكمها الأقليات التي تستغل المواطنين، وبإبدالها بديمقراطيات تحل محلها؛ وأعاد العمل بقوانينها

المحلية. ... وعلى الفور، قامت تلك المدن بإرسال وفود أهدت الملك تيجاناً ذهبية، وأرفقت ذلك بتقديم وعود بالتعاون معه في كافة المجالات».

هذه المصادر، مثلها مثل تلك المنقوشة على المجسم الأسطواني للملك سايروس، تحتوي بشكل شبه مؤكد، على قدر كبير من الدعاية الإمبراطورية؛ لأنه من غير المحتمل أن يكون الإسكندر قد استقبل حيثما حل كمحرر. فقد كان في المحصلة، مجرد فاتح، كما أنه كان يشتهر بأنه «أكثر القادة الميدانيين براعة في التاريخ (وأكثرهم طموحاً)» [٤٤]. و مع ذلك، فإن من المؤكد أن الحقبة الأخيرة من العصر الأخميندي تميزت بتصاعد في التعصب، وازدياد في معدل القلاقل، والعنف. ويتسق هذا مع الأطروحة الأساسية لهذا الكتاب: ففي الوقت الذي ازداد معدل التعصب في الحكم الفارسي، ازدادت صعوبة المحافظة على الاستقرار السياسي على امتداد المناطق الشاسعة الخاضعة للسيطرة الأخميندية، أو القدرة على الإفادة من الطاقات الهائلة للشعوب المستعمرة ووضعها في خدمة الإمبراطورية.

وهنا يكمن التحول الأخير والأكثر أهمية؛ ذلك أن التسامح الذي أبداه ومارسه كل من سايروس وداريوس لبناء إمبراطوريتهما الهائلة كانت تحمل في طياتها بذور التعصب الذي مورس فيما بعد. واجهت فارس الأخميندية التي مثلت القوة المطلقة الأولى في العالم المشكلة الأساسية نفسها التي لا بد لأي قوة تمارس السيطرة على العالم أن تواجهها – لكنها لم تستطع إيجاد حل لها.

قام الفرس ضمن نطاق العالم الذي كانوا يسيطرون عليه، بعملية دمج غير مسبوقة لأعداد كبيرة من الشعوب المتشعبة الأعراق والمشارب. استطاعوا تحقيق ذلك بسبب أن سايروس وداريوس كانت لديهما الجرأة في أن يمتنعا عن فرسنة رعاياهما، أو قمع معتقداتهم الدينية المحلية، أو لغاتهم، أو تركيبتهم الاجتماعية وطموحاتهم. من حيث المبدأ، كانت كثير من تلك الشعوب قريبة جداً من الفرس – ثقافياً، وجغرافياً، ولغوياً – لدرجة أنه كان بإمكانهم استيعاب هذه الشعوب بسهولة.

فالميديون على سبيل المثال، اندمجوا بالأساس مع فاتحيهم الفرس. ولكن مع ازدياد رقعة الإمبراطورية اتساعاً، فقد كان من الطبيعي أن تضم أقواماً جديدة مختلفة لها ثقافاتها الخاصة بها، حيث حافظت على خصوصيتها المجتمعية في ظل حكم أسيادها الفرس.

بالرغم من أن الإمبراطورية الأخمينية كانت موحدة عسكرياً، إلا أنها لم تكن تتمتع بهوية سياسية ذات جاذبية، كما هي الحال في الأمم الحديثة. فلم يكن هناك قاسم مشترك ديني، أو لغوي، أو ثقافي يشد مفاصل الإمبراطورية المتنوعة إلى بعضها بعضاً. وكانت سياسات التسامح التي اتبعها سايروس الكبير، والتي تلامس حدود الأسطورة، هي بالضبط ما سهلت «على الإغريقي أن يتحسس انتماءه الإغريقي، ويتحدث بلغته الإغريقية، كما أشعرت المصري أنه مصري بالفعل ويتحدث باللغة المصرية، وهكذا».

نتيجة لذلك، وجدت مجموعات انفصالية قوية مكاناً لها في قلب الإمبراطورية. ومع ازدياد حدة الصراع، انقلبت الشعوب التي حافظت على هويتها العرقية والدينية والثقافية التي ازدادت قوة بسبب التسامح الفارسي على الإمبراطورية نفسها. وباعتبار أنه لم يكن هناك "غراء" أيديولوجي قوي يربط ما بين الشعوب المختلفة في الإمبراطورية، فقد فقدت السلطة المركزية سلطتها في نهاية الأمر. ومع بداية أفول العصر الأخميندي، بدأ المتمردون الانفصاليون بالظهور في كل مكان. لم يكن هناك ما يشد الإمبراطورية إلى بعضها بعضاً سوى القوة العسكرية. عندما فتح الإسكندر المقدوني بلاد فارس، وأوضح للنخب المحلية فيها أن مصالحها ومواقعها وحياتها لن تخضع إلى أي تغيير، شعر الأخمينديون أنه ليس عليهم القيام بشيء سوى مقايضة حاكم بحاكم آخر.

الإسكندر الكبير

يقدم لنا الكتاب الكلاسيكيون وصفاً جسدياً للإسكندر. فهو لم يكن يميل إلى

الطول عندما كان في الثالثة عشرة من عمره، لكنه كان يتمتع بقوة عضلية غير عادية، وذا بنية متراصة، وكان عداء سريعاً. كان فاتح البشرة، أشقر الشعر، أشعثه، ويشبه فروة شعر الأسد. لم تكن عيناه متناسقتين، فإحداهما كانت رمادية تميل إلى الزرقة، والأخرى كانت بنية غامقة. كانت أسنانه حادة - «مثل ملاقط صغيرة». كان صوته حاداً ومرتفعاً، وكانت مشيته سريعة وانفعالية. كان يمشي مرفوع الرأس، ومائلاً قليلاً إلى اليسار، وربما كان يتصنع ذلك. وصفه المؤرخ بيتر غرين كما يلي: «كان شكله في بداية صباه يميل أكثر إلى الأنثوية، وهذا يشير إلى الهستيريا المكبوتة وراء الجاذبية الكبيرة التي كان يتمتع بها».

ترعرع الإسكندر يرافقه اعتقاد بأنه من سلالة الأبطال والآلهة مثل أخيل وهرقل، وعززت هذه الفكرة من طموحاته في الحياة. وبترتيب من والده، وكتكريم كبير له، فقد أشرف أرسطو الذي تم تحذيره سلفاً من أن الولد «صعب المراس قليلاً»، على تعليمه. وكمعظم الإغريق في ذلك الوقت، كان أرسطو معتداً جداً بانتمائه العرقي. كان يعتقد بأن جميع البرابرة - كونهم من غير الإغريق - جاؤوا إلى الحياة كي يكونوا عبيداً، وأن من العدل والإنصاف أن يتولى الإغريق حكمهم. يقال إن الإسكندر اعتمد على فقرة من الإلياذة أشار إليها معلمه «ككراس أو دليل لخوض الحرب». ويبقى احتمال ما إذا كان الإسكندر الشاب يشاطر منذ البداية معلمه هذا الشعور بالاحتقار تجاه «البرابرة» مسألة فيها نظر. على أي حال، بعد اغتيال والده مباشرة سنة ٣٣٦ قبل الميلاد، تربع الإسكندر على عرش مقدونيا، وعزز صلاته مع حلفائه، وبدأ حملته من أجل فتح بلاد فارس.

هل كان الإسكندر متسامحاً؟ يحذر المؤرخ غاي ماكلين روجرز في كتاب صدر له مؤخراً حول سيرة الإسكندر، من إسقاط معايير حديثة على شخص ينتمي إلى العصور القديمة: «ليس بالإمكان تقرير ما إذا كان "الإسكندر" كشخص، مِثلياً أو طبيعياً (كما زعم البعض)، متعصباً قومياً، أو مجرد شخص يحب انتماءه العرقي، سفاحاً جماعياً أو مخلّصاً. الحقيقة أن الإسكندر كان عبقرياً يلف شخصه الغموض

ولا تستطيع تصنيفاتنا الحديثة أن تحويه ضمن إطار محدد.» في الوقت نفسه، يصف روجرز الإسكندر (مستخدماً هو نفسه، مفهومات حديثة) «بأنه كان المؤيد الأول غير المعلن للفكر النسوي، والميال بشكل محدود إلى فكرة التعدد الثقافي، وصاحب رؤية دينية»؛ أسس إمبراطورية غير عادية كان يحكمها «الأفضل» من بين الخلائق. أما ما لا يمكن أن يثور الجدل حوله هو التالي: في الوقت الذي تعاظمت سلطته، بدأ الإسكندر، وبشكل متزايد الوضوح، يسير على خطا أسلافه من أباطرة الفرس العظام مطبقاً مبدأ التسامح على المستوى الإستراتيجي لكسب ود الشعوب التي فتح بلدانها، وضم خيرة المحاربين والقادة من كل الأعراق إلى جيشه وإدارته[٤٧] .

عندما وطأت قدما الإسكندر أرض بلاد فارس، قدّم نفسه ليس كفاتح أجنبي بل كمنتقم لدم داريوس الذي اغتيل – وهو خصمه السابق – وأيضاً كخليفة شرعي للعرش الأخميندي. أبدى تكريماً حذقاً لسايروس، وأعاد تنصيب الحكام المحليين ملوكاً على ولاياتهم بالرغم من أنهم خاضوا الحرب ضده. كما تزوج من فتاة فارسية، مشجعاً بذلك الإغريق الآخرين على القيام بالشيء ذاته. وبالرغم من أن هذه السياسات أثارت حيرة العديد من رعاياه الإغريق ودهشتهم، فقد نجحوا في كسب دعم الطبقة الأرستقراطية الفارسية، وغالبية عامة الشعب الفارسي.

بعد فتح بابل، أمر الإسكندر بإعادة بناء المعابد التي زُعِمَ أن زيركسيس قد هدمها، بما في ذلك معبد بعل، إله العواصف الجبار. قدّم الإسكندر أضاحي للإله بعل على مرأى ومسمع من الناس، ممتثلاً في ذلك إلى نصائح قدمها له الكهنة البابليون. رحب البابليون بالإسكندر بأذرع مفتوحة، بالرغم من أنه لم يكن واضحاً أن ذلك كان نتيجة للقمع الذي مارسه عليهم الفرس أو بسبب أنهم أرادوا بذلك اتقاء شره. كما وفروا لأفراد جيشه المقدوني، وعلى مدى شهر كامل متعة لن ينسوها طيلة حياتهم. فلقد أقاموا لهم الولائم واستضافوهم في أفخم البيوت الخاصة، ووفروا لهم كميات غير محدودة من الخمور والطعام، كما وفروا لهم النساء بمن في ذلك زوجات وبنات بعض علية القوم. كما قدمت بائعات الهوى المحترفات خدماتهن

وخبراتهن، وكانت حفلات رقص التعري التي تقام بعد العشاء تشكل بالنسبة لهؤلاء أفضل أشكال التسلية. بالإضافة إلى ذلك، تم اصطحاب الجنود إلى أكثر المناظر شعبية، بما في ذلك الحدائق المعلقة الرائعة.

انخرط الإسكندر في ممارسة طقوس دينية مشابهة لإرضاء الجمهور بعد أن قام بفتح مصر. وفي معرض توثيقه لنجاح الإسكندر في تعامله مع المصريين، يضيف بيتر غرين إضاءة نفسية رائعة على المشهد:

> حصل [الإسكندر على ما فاق كل توقعاته. فما كان ينظر إليه باعتباره نوعاً من الدبلوماسية السياسية تحولَ إلى تجربة عاطفية وروحية عميقة. ... فقد كان الملوك الفرس بحكم مناصبهم فراعنة مصر، وكان هذا واقعاً فرضته الفتوحات التي أخضعت السلالات المحلية. وضع الإسكندر داريوس على الرف: الآن، يعتبره الكهنة حاكمهم الشرعي. وهكذا، ومع حلول الرابع عشر من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، توج المقدوني الشاب فرعوناً في احتفال مهيب. قاموا بوضع التاج المزدوج فوق رأسه، والخُطّاف والمدرس في يديه. وهكذا فقد أضحى ملكاً وإلهاً في الوقت نفسه، وتجسيداً وابناً للإلهين رع وأوسيريس.... كانت هناك مؤشرات [سابقة] أن... الإسكندر [بدأ] يهمل بني جلدته من المقدونيين... الآن، وهو في وسط هذه الروائع المصرية القديمة – التي تحمل في طياتها احتراماً شبه تصوفي للعقل الإغريقي – بدأ يقتنع بأنه في واقع الأمر، إله وابن إله [٤٨].

بحلول سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، سمع الإسكندر أن خصماً فارسياً يعد العدة لانتفاضة ضده. رداً على ذلك، توجه الإسكندر إلى باكتريا، وجمع عدداً كبيراً من الحراس الشخصيين والحجاب الذين غص بهم بلاطه، وكان بين هؤلاء، أوكساثريس، شقيق داريوس. كان يضع على رأسه تاجاً قماشياً فارسياً مرصعاً بالجواهر، ويرتدي ثياباً فارسية بيضاء تقليدية ويلتف بوشاح، حتى إنه زين خيوله على الطريقة الفارسية. انتقد الكثيرون من الكتاب القدامى تبني الإسكندر للأزياء والعادات الفارسية واعتبروها انحداراً باتجاه الترف، وميلاً نحو «المشرقية». ولكنها، مرة أخرى، لم تكن سوى جزء من إستراتيجية جريئة تهدف إلى استخدام التسامح

وسيلة – وهي الإستراتيجية التي أتت أكلها وحققت الغاية المثلى من ممارستها، من خلال حفل الزواج الجماعي الذي أقامه الإسكندر في سوسة.

ففي سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، قام الإسكندر وتسعون من ضباطه المقدونيين والإغريق (بناء على أوامره) بالزواج من فتيات فارسيات وميديات، جميعهن من الطبقة الملكية وطبقة النبلاء. كانت دوافع الإسكندر محل نقاش في دوائر الباحثين والمفكرين، لكنه أراد –على ما يبدو– أن يصبح الوريث الشرعي للإمبراطورية الأخمينية، وأن ينشئ طبقة جديدة من أصول مختلطة. على أي حال، تزوج الإسكندر من اثنتين من النساء في سوسة: بارسين، الابنة الكبرى لداريوس، وفتاة تنتمي إلى إحدى العائلات الملكية الأخرى. وبعكس الزواج الأول للإسكندر (من امرأة باكترية تدعى روكسان) الذي تم بموجب التقاليد المقدونية، فإن الزواج الجماعي كان باذخاً وعلى الطريقة الفارسية. بعد إتمام مراسم الزواج البسيطة، أقيم عرس ترافق باحتفالية ماجنة ومتهتكة مدة خمسة أيام. استناداً إلى أحد المصادر القديمة، كان الإسكندر يملك سرادقاً خاصاً يحتوي على مئة غرفة لعرائسه،

> وكان مفروشاً بكلفة وروعة تفوقان التصور، ومليئاً بالثياب الفخمة، وثياب أخرى بالألوان البنفسجية والقرمزية والذهبية... وكان يبلغ طول كل واحد من أعمدة ذلك السرادق عشرين ذراعاً، جميعها مطلية بالفضة والذهب، ومرصعة بالجواهر الثمينة، وحولها كانت تنتشر الستائر الثمينة والمطرزة برسوم للحيوانات وبالذهب، وموشاة بقصبات من الذهب والفضة [٤٩].

على خطى أسلافه الأخمينديين، جمع الإسكندر أضخم جيش على وجه البسيطة معتمداً في ذلك على قدرته ورغبته في دمج مقاتلين من كل أنحاء إمبراطوريته في جيشه. ثلاثون ألفاً من الشبان الفرس اختيروا بسبب قوتهم البدنية واعتدادهم بالنفس، تم تعليمهم اللغة الإغريقية، وتدريبهم على فنون القتال المقدونية، ودمجهم في جيش الإسكندر. وكان فرسانه يتكونون ليس من الفرس وحسب، بل من الباكتريين، والسوغدانيين، والأراكوتيين، والزرانغيين، والآريين، والبارثيين. وكانت قواته البحرية تتمتع بتنوع مشابه. كانت قواته البحرية التي تتألف من أسطول

هائل يتكون من ٢٠٠٠ سفينة تقريباً و ١٢٠٠٠٠ من جنود البحرية الذين جمعهم من الإنديز إلى الهند. وكان يعمل على متن تلك السفن بحارة فينيقيون وقبارصة ومصريون تحت قيادة ضباط إغريق وفرس بالدرجة الأولى. كانت الحملة التي شنها الإسكندر في منطقة الإنديز مريرة ووحشية. فقد جوبه بمقاومة شرسة، لكن جيشه استطاع قتل ٨٠٠٠٠ من الجنود الهنود على الأقل، وأخذ الكثيرين منهم كعبيد.

وجّهَ العديد من الإغريق، بمن فيهم عدد لا يستهان به من جنود الإسكندر، كثيراً من اللوم والانتقاد لملكهم بسبب اعتماده على الأجانب، وتبنيه المتباهي للعادات والتقاليد الأجنبية. وأدى القلق من أن يتحول الإسكندر إلى «بربري» إلى محاولة للتمرد عليه في منطقة أوبيس. استطاع الإسكندر قمع ذلك التمرد؛ واحتفل بذلك الانتصار من خلال إقامة أعياد دعا إليها تسعة آلاف من الضيوف. ولكي يرضي أبناء جلدته من الإغريق، قام بفصل أولئك الضيوف بحسب انتمائهم العرقي والطبقي. جلس الإسكندر مع ضيوفه الإغريقيين الذين كانوا يجلسون إلى جانب الفرس، وهؤلاء كانوا يجلسون إلى جانب الجنود المنتمين إلى أعراق أخرى، من دون أن يكون هناك اختلاط بين أي من تلك المجموعات العرقية.

وهكذا، فإذا كان الإسكندر يتطلع إلى «وحدة بين بني البشر» في نهاية المطاف، كما أشار البعض، فإنه لم يدع هذه الآمال تقف في وجه طموحاته العارمة. وكما ذكر بيتر غرين، كان «الهوس الذي أخذ بمجامع عقل الإسكندر يتمحور حول الحروب والفتوحات. من نافلة القول الإدعاء... بأنه كان يحلم بشكل يكتنفه الكثير من الغموض، بالخوض في نهر من الدماء والعنف كي يحقق الأخوة الإنسانية من خلال اغتصاب قارة بأكملها. أمضى جل حياته في تحقيق نجاحات باهرة، والسعي باتجاه تحقيق مجد شخصي.» وتبقى حقيقة أن التسامح لعب دوراً حاسماً في سعيه نحو المجد الشخصي.

مع حلول سنة ٣٢٤، قبل الميلاد، انتقلت الهيمنة على العالم من بلاد فارس إلى بلاد الإغريق. كان الإسكندر، وسيبقى حاكماً على أكبر إمبراطورية في التاريخ الإغريقي أو المقدوني. كان في واقع الأمر «أكثر رجال العالم ثراء وقوة في تاريخ العالم منذ أقدم العصور وحتى ظهور عهده.» كان يقيم في بلاط العرشُ فيه من الذهب الخالص، وكانت حاشيته تضم خمس مئة حارس فارسي الأصل من «حملة التفاح»، وكان الزي الذي يلبسونه يتكون من اللونين البنفسجي والأصفر؛ وألفاً من رماة السهام الذين يرتدون أوشحة باللونين القرمزي والأزرق الغامق، بالإضافة إلى خمس مئة من جنود النخبة من جنود المشاة الإغريق بدروعهم الفضية [٥٠].

وبالتزامن مع فتوحات الإسكندر، انتشرت لغة الإغريق وأدبهم وفنونهم وفنهم المعماري وفلسفتهم عبر القارات – وفي النهاية، عبر القرون. في الوقت نفسه، وفي مختلف المدن الرئيسة التي أقامها الإسكندر من مصر إلى الهند، كانت الأفكار «البربرية» تترجم إلى اللغة الإغريقية، ويتم استيعابها في الإمبراطورية؛ وهو ما أدى إلى نشوء ثقافة هجينة هي الثقافة الهيلنستية التي كان لها تأثير عارم على المسيحية، وعلى العالم الغربي. ومع كل الأعمال البطولية التي حققها الإسكندر، يبقى القول إن إرثه الأعظم تمثل في الوحدة الثقافية العابرة للقارات التي لم يستطع ملوك الفرس تحقيقها أبداً.

لكن الوحدة السياسية للمنطقة انتهت مع موت الإسكندر؛ ذلك أنه قبل أن يحقق هدفه الآتي المتمثل في فتح المنطقة العربية، وغرب البحر الأبيض المتوسط، وأوروبا، – وقع الإسكندر في عمر ٣٢ سنة، فريسة لحمى غامضة قاتلة. تهاوت إمبراطورية الإسكندر مباشرة بعد وفاته وتفتتت إلى مجموعة من الممالك التي مزقتها حركات تمرد داخلية. وكان من المفهوم أن يقوم جميع زملاء الإسكندر من العرسان باستثناء واحد فقط من سوسة، بتطليق زوجاتهم الفارسيات [٥١].

وكان على عملية إعادة توحيد تلك البقعة أن تنتظر إلى حين قدوم روما.